تفسير سورةُ المؤمنون

من آية (62) إلى آية (77)

اللقاء السادس

المعنى الإجمالي من آية (57) إلى آية (61):

يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ الَّذين همْ -لِخَشيَتِهم مِن رَبِّهم- حَذِرونَ خائِفونَ مِن عِقابِه، يُداوِمونَ على طاعتِه، والذين يُؤمِنونَ بآياتِه، والَّذين يُخْلِصونَ لِرَبِّهم في عِباداتِهم كلِّها؛ فلا يُشرِكونَ به شَيئًا، والذين يُعطونُ ما يُعطونَ مِنَ الزَّكواتِ والصَّدقاتِ وغيرِ ذلك، وقلوبُهم خائفةٌ مِن رُجوعِهم إلى ربِّهم، فيَخافونَ ألَّا يَتقَبَّلَ اللهُ منهم أعمالَهم: أولئك يُبادِرونَ إلى فِعْلِ الخَيراتِ؛ تقرُّبًا إلى ربِّهم، وهم إلى هذه الخَيراتِ سابِقونَ.

ويخبرُ تعالى أنَّه لا يكلِّفَ أحدًا إلَّا ما يُطِيقُه، وأنَّه لديه كتابٌ فيه جميعُ أعمالِ العبادِ....

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾﴿62﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه كَيفيَّةَ أعمالِ المؤمِنينَ المخلِصينَ؛ ذكَرَ حُكمينِ مِن أحكامِ أعْمالِ العِبادِ؛ الأوَّلُ: قولُه: وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، والثَّاني: قولُه: وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

قال السعدي: وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ مُسارَعةَ المؤمِنينَ إلى الخَيراتِ، وسَبْقَهم إليها، رُبَّما وَهِمَ واهِمٌ أنَّ المطلوبَ منهم ومِن غَيرِهم أمْرٌ غيرُ مَقْدورٍ أو مُتَعَسِّرٌ؛ أخْبَرَ تعالى أنَّه لا يُكلِّفُ نفْسًا إلَّا وُسْعَها **(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)** أي: ولا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا ما تُطِيقُ حَمْلَه والقِيامَ به، مِن عِبادةِ اللهِ والعَمَلِ بشَرعِه. موسوعة التفسير

قال القصاب: بِشارةٌ للمُشفقينَ مِن خَشيةِ ربِّهم، والوَجِلةِ قُلوبُهم -مع صالِحِ أعمالِهم- مِنَ الرُّجوعِ إلى ربِّهم، وتَطْييبٌ لأنفُسِهم بألَّا يَرْهَبوا ظُلْمًا، وأنْ يَطْمَئِنُّوا إلى أنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُه لا يُطالِبُهم فَوقَ وُسْعِهم، وأنَّ وُسْعَهم في صالِحِ أعمالِهم قد أحصاهُ كِتابٌ يَنطِقُ لهم.

كما قال سُبحانَه: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا [البقرة: 286].

مواساة ربانية، لن يحملك الله سبحانه أكبر من طاقتك فكن على يقين وأطمئن وأصبر....

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا كانتِ الأعمالُ إذا تكاثَرَتْ وامتَدَّ زمَنُها، تعسَّرَ أو تعذَّرَ حَصْرُها إلَّا بالكتابةِ؛ عامَلَ العِبادَ سُبحانَه بما يَعرِفونَ مع غِناهُ عن ذلك، فقال:

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) أي: وعِندَنا كِتابٌ كتَبَتِ الملائِكةُ فيه جَميعَ أعْمالِ العِبادِ؛ فهو يُبَيِّنُ بالصِّدقِ الثَّابِتِ المطابِقِ للواقِعِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فنُجازِيهم بأعمالِهم، ولا نَظلِمُهم بعُقوبتِهم بما لم يَعمَلوا، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِهم، أو بالنَّقصِ مِن حَسَناتِهم. موسوعة التفسير

قال الشِّنقيطي: (الظاهِرُ: أنَّ معنى نُطقِ الكتابِ بالحَقِّ: أنَّ جميعَ المكتوبِ فيه حَقٌّ؛ فمَن قرأ المكتوبَ فيه كأنَّه لا يَنطِقُ في قراءتِه له إلا بالحَقِّ).

وقال ابنُ عاشور: (يجوز أن يكون نُطقُ الكتابِ حقيقةً، بأن تكونَ الحروفُ المكتوبةُ فيه ذاتَ أصواتٍ، وقُدرةُ الله لا تُحَدُّ).

كما قال تعالى: (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [الجاثية: 28- 29].

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ ﴿63﴾

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا) أي: بلْ قُلوبُ المشرِكينَ في عَمايةٍ وغَفلةٍ عنِ القُرآنِ؛ فهُم لا يُؤمِنونَ به، ولا يَتدبَّرونَه. موسوعة التفسير

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ما الأمرُ كما يحسَبُ هؤلاء المشرِكونَ مِن أنَّ إمدادَنا لهم بما نُمِدُّهم به مِن مالٍ وبنينَ، بخيرٍ نَسوقُه بذلك إليهم، رضًا منَّا عنهم؛ لكنَّ قلوبَهم في عَمًى عن هذا القرآنِ).

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) أي: وللمُشرِكينَ أعمالٌ سَيِّئةٌ رَديئةٌ دونَ أعمالِ المؤمِنينَ الصَّالحةِ التي ذكرها الله، يُمهِلُهم اللهُ سبحانَه حتَّى يَعمَلوها قبْلَ مَوتِهم؛ فيَحِقَّ عليهمُ العَذابُ. موسوعة التفسير

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ ﴿64﴾

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) أي: فإذا عذَّبَ اللهُ عُظَماءَ المشرِكينَ المنعَّمينَ، أخَذوا يَصرُخونَ ويَستَغيثونَ مِن شِدَّةِ عَذابِهم، طالِبينَ الخَلاصَ ممَّا أصابَهم. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: كِنايةٌ عن شِدَّةِ ألَمِ العذابِ، بحيث لا يَستطيعونَ صَبرًا عليه؛ فيَصدُرُ منهم صُراخُ التَّأوُّهِ والوَيلِ والثُّبورِ.

قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ) أي: أغنياءَهم ورؤساءَهم، والإشارةُ إلى قريشٍ. وفي المرادِ بِالْعَذَابِ قولانِ: أحدُهما: ضربُ السيوفِ يومَ بدرٍ. قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ. والثاني: الجوعُ الذي عُذِّبوا به سبعَ سنينَ. قاله ابنُ السَّائبِ).

قال ابن عاشور: جعَل تعالى الأخْذَ واقعًا على المترفينَ منهم؛ لأنَّهم الذين أضلُّوا عامَّةَ قَومِهم، والعامَّةُ أقرَبُ إلى الإنصافِ إذا فَهِموا الحقَّ؛ بسببِ سلامتِهم مِن جُلِّ دواعي المكابرةِ: مِن توقُّعِ تقلُّصِ سُؤددٍ، وزوالِ نعيمٍ. وكذلك حقٌّ على قادةِ الأُممِ أنْ يُؤاخَذوا بالتبعاتِ اللاحقةِ للعامَّةِ مِن جرَّاءِ أخطائِهم ومُغامرتِهم عن تضليلٍ أو سُوءِ تَدبُّرٍ، وأن يُسألوا عن الخَيبةِ أنْ ألْقَوا بالذين اتَّبعوهم في مهواةِ الخَطرِ، كما

قال تعالى: (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) [الأحزاب: 67، 68]، (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)[النحل: 25].

إن أكبر دليل على اقتراب هلاك بلاد وحلول زوالها، حينما يكثر أشرارها ويزداد فساقها ويقوى الشر فيها؛ لأن سنة الله -سبحانه وتعالى- قضت أن الأمم التي تبطر معيشتها، وينهمك أهل الترف والمعاصي في شهوات الدنيا وملذاتها، ويقارف الآثام والذنوب فيها رموز الناس وكبارهم، فلا بد أن يصيبها العقاب عاجلاً أو آجلاً، سواء كان عذاباً مادياً حسياً أو عذاباً معنوياً.

يقول عمر بن الخطّاب -رضي الله عنه-: "توشك القرى أن تخرب وهي عامرة قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجّارها أبرارها وساد القبيلة منافقوها" [الجواب الكافي (53)].

لقد ورد ذكر الترف في القرآن الكريم في ثمانية مواضع كلها في موضع الذم له والتحذير منه، كما وردت عدد من الأحاديث النبوية الشريفة تنهى عن الترف وتحذر من تعلُّق القلب به، وغلو الإنسان في الانغماس في متع الحياة وملذاتها، وبعضها الآخر ينهى عن بعض مظاهر الترف، ويحث على تركها والانصراف عنها إلى ما هو خير للعبد في الدارين

قال -ﷺ-: "فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ" [البخاري].

إن دعوة الإسلام إلى ترك الترف، ومحاربته له، لا تعني ترك التنعم بالملذات، وإنما المراد الاقتصاد في الإنفاق وعدم تعلق القلب بها والركون إليها، إن النعم تدر علينا ليل نهار، ونحن نتمادى في المعاصي، ونكثر من الذنوب، ونقصر في طاعة الله، وهذا -والله- ينذر بالخطر الجسيم والعذاب الأليم، لا سيما مع كثرة النعم، والانغماس في الترف، يقول الله -سبحانه وتعالى- محذراً لنا من الوصول إلى هذا الحال،: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)

فعلى المسلم العاقل اللبيب أن يحذر من الترف الزائد، ويبتعد عن مظاهره وآثاره، لأنه يؤدي بالإنسان إلى مهاو سحيقة ودركات سفلى، وإذا كثر المترفون في الأمة وزاد ترفهم من المشروع إلى الممنوع، ومن المباح إلى الحرام، حل بالأمة العذاب، واستحقت غضب الله ومقته، "قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ" [البخار

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ ﴿65﴾

(لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ) أي: لا تَضِجُّوا وتَستَغيثوا -أيُّها الكافِرونَ-؛ فلا شَيءَ يُخلِّصُكم مِن عذابي، ولا يَنفَعُكم صُراخُكم. موسوعة التفسير

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ ﴿66﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال الشنقيطي: لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّ المُترفينَ مِنَ الكُفَّارِ إذا أخَذَهُم ربُّهم بالعذابِ، ضَجُّوا وصاحُوا واستغاثُوا، وبيَّنَ أنَّهم لا يُغاثُونَ؛ بيَّنَ سببَ ذلك، قال الرازي: وهو أنَّه متى تُلِيَتْ آياتُ اللهِ عليهم أتَوْا بأُمورٍ ثلاثةٍ: أحدِها: أنَّهم كانوا على أعقابِهم يَنكِصُون، وهذا مَثَلٌ يُضرَبُ فيمَنْ تَباعَد عن الحقِّ كلَّ التَّباعُدِ، وثانِيها: قولُه: مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ، وثالثِها: يَسْمُرونَ بذِكْرِ القُرآنِ وبالطَّعنِ فيه.

(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ) أي: قد كانت آياتُ القُرآنِ تُقرَأُ عليكم؛ لِتُؤمِنوا بها قبْلَ أنْ يَحُلَّ بكمُ العَذابُ، فكنتُم تُكذِّبونَ بها، وتَرجِعونَ مُعرِضينَ عنها. موسوعة التفسير

قال السعدي: (فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ أي: راجعينَ القَهقرى إلى الخلفِ؛ وذلك لأنَّ باتِّباعِهم القرآنَ يتقدَّمونَ، وبالإعراضِ عنه يستأخِرونَ ويَنزِلونَ إلى أسفَلِ سافِلينَ).

قال ابن جرير: (ترجِعونَ مولِّينَ عنها إذا سَمِعتُموها؛ كراهيةً منكم لسَماعِها).

كما قال تعالى: (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [الأعراف: 146].

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ ﴿67﴾

(مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) أي: والحالُ أنَّكم مُستَكبِرونَ بسببِ البيتِ الحرامِ، تقولونَ: لا يَظهَرُ علينا أحدٌ؛ لأنَّا أهلُ الحرمِ. موسوعة التفسير

(سَامِرًا تَهْجُرُونَ) أي: حالَ كونِكم متحدِّثينَ ليلًا، تَهْذونَ في شأنِ القرآنِ، وتَقولونَ فيه ما لا معنَى له مِن القولِ؛ مِن الباطلِ الذي لا يضرُّه. موسوعة التفسير

وقال ابنُ عاشور: (أي: في حالِ كَونِكم مُتحَدِّثينَ هجْرًا، وكان كبراءُ قُرَيشٍ يَسمُرون حَولَ الكعبةِ يتحَدَّثونَ بالطَّعنِ في الدِّينِ، وتكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).

قال البقاعي: (تَهْجُرُونَ أي: تُعرضون عنها [أي: الآياتِ]، وتقولونَ فيها القولَ الفاحشَ).

وقال تَبارَكَ وتَعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [فصلت: 26].

وقال تعالى: وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ [الأنبياء: 36].

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿68﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا كانتِ الآياتُ -لِمَا فيها مِنَ البَلاغةِ المعجزةِ، والحِكَمِ المعجبةِ- داعيةً إلى تَقبُّلِها بَعدَ تأمُّلِها، وكان الكافِرونَ يُعرِضونَ عنها، ويُفْحِشون في وَصْفِها: تارَةً بالسِّحرِ، وأُخرى بالشِّعرِ، وكرَّةً بالكَهانةِ، ومرَّةً بغَيرِها؛ تسبَّبَ عن ذلك الإنكارُ عليهم

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) أي: أفلمْ يَتدبَّرْ أولئك المشرِكونَ القُرآنَ؛ فيَعقِلوا مَعانِيَه، ويَعلَموا ما فيه، ويَعمَلوا به ويتَّبِعوه، أمْ جاءَهم فيه ما لم يأْتِ آباءَهم الَّذين مِن قَبْلِهم، فأنكَروه وأعرَضوا عنه. موسوعة التفسير

قال ابن حيان: وهو تَقريعٌ وتَوبيخٌ على إعراضِهم عن اتِّباعِ الحقِّ، والانتفاعِ بالقُرآنِ.

قال السعدي: أي: أفلَا يَتفكَّرونَ في القُرآنِ ويَتأمَّلونَه ويَتدبَّرونَه، أي: فإنَّهم لو تَدبَّروهُ لَأوجَبَ لهم الإيمانَ، ولَمنَعَهُم مِنَ الكُفرِ، ولكنَّ المصيبةَ الَّتي أصابَتْهُم بسَببِ إعراضِهم عنه، ودَلَّ هذا على أنَّ تَدبُّرَ القُرآنِ يَدْعُو إلى كلِّ خَيرٍ، ويَعصِمُ مِن كلِّ شَرٍّ، والَّذي منَعَهم مِن تَدبُّرِه أنَّ على قُلوبِهم أقْفالَها.

قال ابن القيم: التَّأمُّلُ في القُرآنِ هو تَحديقُ ناظِرِ القَلْبِ إلى مَعانيه، وجَمْعُ الفِكْرِ على تَدبُّرِه وتَعقُّلِه، وهو المقصودُ بإنزالِه، لا مُجرَّدُ تِلاوَتِه بلا فَهْمٍ ولا تَدبُّرٍ؛ قال اللهُ تعالى: أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ، وقال تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ [ص: 29]، وقال تعالى: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [محمد: 24]، وقال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [الزخرف: 3]. وقال الحسَنُ: (نزَلَ القُرآنُ؛ لِيُتدبَّرَ ويُعمَلَ به، فاتَّخَذوا تِلاوَتَه عمَلًا!). فليس شَيءٌ أنفَعَ للعَبْدِ في مَعاشِه ومَعادِه، وأقرَبَ إلى نَجاتِه؛ مِن تَدبُّرِ القُرآنِ، وإطالةِ التَّأمُّلِ فيه، وجَمْعِ الفِكْرِ على مَعاني آياتِه؛ فإنَّها تُطْلِعُ العبْدَ على مَعالِمِ الخيرِ والشَّرِّ بحَذافيرِهما، وعلى طُرقاتِهما وأسبابِهما، وغاياتِهما وثَمراتِهما، ومآلِ أهْلِهما، وتَضَعُ في يَدِه مَفاتيحَ كُنوزِ السَّعادةِ والعُلومِ النَّافعةِ، وتُثبِّتُ قَواعِدَ الإيمانِ في قَلْبِه، وتُشيِّدُ بُنيانَه، وتُوطِّدُ أركانَه، وتُريه صُورةَ الدُّنيا والآخرةِ والجنَّةِ والنَّارِ في قَلْبِه، وتُحضِرُه بيْنَ الأُمَمِ، وتُرِيه أيَّامَ اللهِ فيهم، وتُبصِّرُه مَواقِعَ العِبَرِ، وتُشهِدُه عَدْلَ اللهِ وفَضْلَه، وتُعرِّفُه ذاتَه وأسماءَه، وصِفاتِه وأفعالَه، وما يُحِبُّه وما يُبغِضُه، وصِراطَه الموصِلَ إليه، وما لِسالِكِيه بَعدَ الوُصولِ والقُدومِ عليه، وقَواطِعَ الطَّريقِ وآفاتِها، وتُعرِّفُه النَّفْسَ وصِفاتِها، ومُفسداتِ الأعمالِ ومُصحِّحاتِها، وتُعرِّفُه طَريقَ أهْلِ الجنَّةِ وأهْلِ النَّارِ، وأعمالَهم وأحوالَهم وسِيمَاهم، ومَراتِبَ أهْلِ السَّعادةِ وأهْلِ الشَّقاوةِ، وأقسامَ الخلْقِ، واجتماعَهم فيما يَجتَمِعونَ فيه، وافْتِراقَهم فيما يَفترِقونَ فيه. وبالجُملةِ: تُعرِّفُه الرَّبَّ المدْعُوَّ إليه، وطَريقَ الوُصولِ إليه، وما له مِنَ الكرامةِ إذا قَدِمَ عليه. وتُعرِّفُه في مُقابِلِ ذلك ثلاثةً أُخرى: ما يَدْعُو إليه الشَّيطانُ، والطَّريقَ الموصِلَةَ إليه، وما للمُستجيبِ لِدَعوتِه مِنَ الإهانةِ والعذابِ بَعدَ الوُصولِ إليه. فهذه سِتَّةُ أُمورٍ ضَروريٌّ للعبْدِ مَعرِفَتُها، ومُشاهدَتُها ومُطالعَتُها. وفي تأمُّلِ القُرآنِ وتَدبُّرِه وتَفهُّمِه: أضعافُ أضعافِ ما ذكَرْنا مِن الحِكَمِ والفوائدِ. وبالجُملةِ فهو أعظَمُ الكُنوزِ. ((مدارج السالكين)) لابن القيم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومِنَ المعلومِ أنَّ كلَّ كلامٍ فالمقصودُ منه فَهْمُ مَعانيه دُونَ مُجرَّدِ ألْفاظِه؛ فالقُرآنُ أَولى بذلك، وأيضًا فالعادةُ تَمنَعُ أنْ يَقرَأَ قَومٌ كِتابًا في فَنٍّ مِنَ العِلْمِ -كالطِّبِّ والحِسابِ- ولا يَستَشرِحوه؛ فكيف بكلامِ اللهِ الَّذي هو عِصْمَتُهم، وبه نَجاتُهم وسَعادَتُهم، وقِيامُ دِينِهم ودُنياهم.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ ﴿69﴾

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) أي: أمْ لم يَعرِفِ المشرِكونَ رَسولَهم مُحمَّدًا، وأنَّه مِن أهلِ الصِّدقِ والأمانةِ، فيُنكِروا قَولَه. موسوعة التفسير

قال البِقاعي: (في هذا غايةُ التَّوبيخِ لهم بجَهلِهم وبعِنادِهم، بأنَّهم يَعرِفونَ أنَّه أصدَقُ الخَلقِ وأعلاهم في كُلِّ مَعنًى جَميلٍ، ثمَّ يُكَذِّبونَه!).

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ﴿70﴾

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ [الأعراف: 184].

وقال سُبحانَه: وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ [التكوير: 22].

(أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ) أي: أمْ يَحتجُّونَ في تَركِ الإيمانِ بدَعوى أنَّ بمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم جُنونًا. موسوعة التفسير

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا كانت هذه الأقسامُ مُنْتفيَةً، ولا سيَّما الأخيرِ المستَلزِمِ عادةً للتَّخليطِ المستلْزِمِ للباطلِ؛ فإنَّهم أعرَفُ النَّاسِ بهذا الرَّسولِ الكريمِ، وأنَّه أكمَلُهم خَلْقًا، وأشرَفُهم خُلُقًا، وأطهَرُهم شِيَمًا، وأعظَمُهم هِمَمًا، وأرجَحُهم عَقْلًا، وأمتَنُهم رأْيًا، وأرضاهُم قَولًا، وأصوَبُهم فِعْلًا: أضرَبَ عنها، وقال

(بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) أي: ليس سَبَبُ رَفْضِهمُ الإيمانَ وتَوحيدَ الرَّحمنِ شيئًا مِمَّا تقَدَّمَ ذِكْرُه، بلِ السَّبَبُ الَّذي دعاهم للتَّمسُّكِ بشِرْكِهم وكُفرِهم هو أنَّ مُحَمَّدًا قد جاءَهم بالحَقِّ، وأكثَرُهم يَكرَهونَ القَبولَ والإذعانَ لهذا الحَقِّ المخالِفِ لأهوائِهم. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: فالحقُّ الذي جاءهم به النبيُّ أوَّلُه إثباتُ الوَحدانيَّةِ لله تعالى، وإثباتُ البَعثِ، وما يَتْبَعُ ذلك مِن الشَّرائعِ النَّازلةِ بمكَّةَ؛ كالأمرِ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ، وصِلةِ الرَّحمِ، والاعترافِ للفاضِلِ بفَضلِه، وزَجْرِ الخَبيثِ عن خُبثِه، وأُخوَّةِ المسلِمينَ بَعضِهم لِبَعضٍ، والمساواةِ بينهم في الحَقِّ، ومَنْعِ الفواحِشِ؛ مِن الزِّنا، وقَتْلِ الأنفُسِ، ووأْدِ البناتِ، والاعتداءِ وأكْلِ الأموالِ بالباطِلِ، وإهانةِ اليتيمِ والمِسكينِ، ونحوِ ذلك مِن إبطالِ ما كان عليه أمرُ الجاهليَّةِ مِن العُدوانِ، والخِلافةِ التي نَشَؤوا عليها من عَهدٍ قديمٍ؛ فكلُّ ما جاء به الرَّسولُ يومَئذٍ هو الموافِقُ لِمُقتضَى نِظامِ العُمرانِ الذي خَلَق اللهُ عليه العالَمَ؛ فهو الحقُّ، كما قال تعالى: مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [الدخان: 39]).

كما قال تعالى: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ [الأنعام: 33].

إن للتفكر في الآيات المقروءة أثرًا عظيمًا بالغًا في رقة القلب وخشيته وإقباله على الله سبحانه، وإن الناظر في أحوال كثير من الناس يجد من قسوة القلب وقحط العين ما لا يعلمه إلا الله، تتلى عليهم الآيات التي لو خوطب بها جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا متذللاً من خشية الله ولا تحرك فيهم شيئًا، وهذه

من أعظم المصائب التي يصاب بها العبد من حيث لا يشعر، فإن التلذذ بآيات الله نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، إنها نعمة ترفع العمر وتزكيه وتباركه.

إن العيش مع آيات الله يجعل المسلم ينتقل من عالم المحسوسات إلى عالم آخر هو عالم الغيب، ويجعل المسلم يعرف أن الموت ليس نهاية المرحلة، وإنما هو مرحلة في الطريق، ويجعل المسلم يوقن أن ما يناله في هذه الحياة ليس نصيبه كله، بل هو جزء من ذلك النصيب، ويعرف أن هذه الحياة مزرعة ودار حرث، وأن ما زرعه سوف يحصده، فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع، وأن هذه الحياة إنما هي دار ممر لا دار مقر، وأن كل ما فيها من لذات إنما هو لعب ولهو وغرور، وأن الحياة الحقيقية هي في الآخرة، فهذا يجعل المسلم لا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أوتي.

إن تدبر آياته يجعل المسلم هادئ النفس مطمئن القلب قرير العين، يؤمن بأن الله هو الرزاق فلا يرجو غيره، ويؤمن بأن الله هو القوي فلا يخاف غيره.

علينا أن نتدبر القرآن، وأن نقف عند عجائبه، وأن نعمل به، قال ابن مسعود: "اقرؤوا القرآن ولا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذ الشعرِ، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة".

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿71﴾

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) أي: ولو جاء الحَقُّ بما يُوافِقُ أهواءَهم الفاسِدةَ المختَلِفةَ، لفَسَدتِ السَّمواتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ مِنَ المخلوقاتِ، واختَلَّ نِظامُ العالَمِ.

موسوعة التفسير

قال الرازي: قال الله تعالى: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فبيَّنَ سُبحانَه أنَّ الحقَّ لا يَتَّبِعُ الهَوى، بلِ الواجِبُ على المكلَّفِ أنْ يَطرَحَ الهَوى ويَتَّبِعَ الحقَّ؛ فبيَّنَ سُبحانَه أنَّ اتِّباعَ الهَوى يُؤدِّي إلى الفَسادِ العظيمِ.

قال ابن القيم: فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ الحقَّ لوِ اتَّبَعَ أهواءَ العِبادِ، فجاء شَرْعُ اللهِ ودِينُه بأهوائِهم؛ لَفسدَتِ السَّمواتُ والأرضُ ومَن فِيهنَّ، وأنَّه مِن المحالِ أنْ يَتَّبِعَ الحقُّ أهواءَهم، وأنَّ أهواءَهُم مُشتمِلةٌ على قُبْحٍ عَظيمٍ؛ لو وَرَدَ الشَّرعُ به لَفَسَد العالَمُ: أعلاهُ وأسفَلُه وما بيْن ذلك....

(بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ) أي: بلْ أتَينا أولئك المشرِكينَ بالقُرآنِ المبَيِّنِ للحَقِّ، وفيه شَرَفُهم وعِزُّهم في دُنياهم وأُخراهم؛ فهُمْ عن القُرآنِ -الَّذي فيه شَرَفُهم وعِزُّهم- مُعرِضونَ لا يَتَّبِعونَه.

موسوعة التفسير

كما قال الله تعالى: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [الأنبياء: 10].

وقال سُبحانَه: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ [الزخرف: 44].

قال القرطبي: وإنه لذكر لك ولقومك يعني القرآن شرف لك ولقومك من قريش، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم.

قال السعدي: فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضا ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿72﴾

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أي: أمْ تَسأَلُ -يا مُحَمَّدُ- مُشرِكي قَومِك أجْرًا على ما جِئتَهم به مِنَ الحَقِّ، فيَمنَعُهم ذلك مِن اتِّباعِه؟! كلَّا! ليس الأمرُ كذلك؛ فثَوابُ اللهِ الَّذي يُعْطيك على تَبليغِ رِسالتِه خَيرٌ لك مِن ذلك؛ فما الَّذي يَمنَعُهم -إذنْ- مِن اتِّباعِ الحقِّ. موسوعة التفسير

(وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أي: واللهُ خيرُ مَن يُعطي عِبادَه ويَرزُقُهم مِن فَضلِه. موسوعة التفسير

قال ابن حيان: دَلَّ على أنَّه لا يُساويهِ أحدٌ في الإفضالِ على عِبادِه.

قال الشربيني: فكلُّ مَن يَرزُقُ غيرَه -مِن سُلْطانٍ يَرزُقُ جُندَهُ، أو سيِّدٍ يَرزُقُ عبْدَهُ، أو رجُلٍ يَرزُقُ عِيالَهُ- فهو واسطةٌ لا يَقدِرُ إلَّا على ما قدَّرَه اللهُ، وأمَّا هو سُبحانَه فهو يُوجِدُ المعدومَ، ويَرزُقُ مَن يُطيعُه ومَن يَعْصيه، ولا يَضيقُ رِزْقُه بأحدٍ، ولا يَشغَلُه فيه أحدٌ عن أحدٍ.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿73﴾

قال ابن عاشور: إنَّ اللهَ تعالى أعقَبَ تَنزيهَ الرَّسولِ عمَّا افتراهُ المشرِكونَ عليه، بتَنزيهِ الإسلامِ عمَّا وَسَمُوه به مِنَ الأباطيلِ، والتَّنزيهِ بإثباتِ ضِدِّ ذلك؛ وهو أنَّه صِراطٌ مُستقيمٌ، أي: طريقٌ لا الْتِواءَ فيه، ولا عَقَباتٍ

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أي: وإنَّك -يا محمَّدُ- لَتَدْعُو مُشركي قَومِك إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، وهو دِينُ الإسلامِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ [الحج: 67].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ ﴿74﴾

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ) أي: وإنَّ المكذِّبينَ بالبَعثِ بَعدَ الموتِ لَمُنحرِفونَ عن طَريقِ الحَقِّ المستقيمِ، الموصِلِ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه، فصائِرونَ إلى النَّارِ. موسوعة التفسير

قال أبو السعود: وُصِفُوا بذلك؛ تَشنيعًا لهم بما هُم عليهِ مِن الانهماكِ في الدُّنيا، وزَعْمِهم أنْ لا حياةَ إلَّا الحياةُ الدُّنيا، وإشعارًا بعِلَّةِ الحُكمِ؛ فإنَّ الإيمانَ بالآخرةِ وخَوفَ ما فيها مِن الدَّواهي مِن أقْوى الدَّواعي إلى طَلَبِ الحقِّ وسُلوكِ سَبيلِه.

قال السعدي: ذكَرَ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ الكريماتِ والتي قبْلَها كلَّ سَببٍ مُوجِبٍ للإيمانِ، وذكَرَ الموانِعَ، وبيَّنَ فَسادَها، واحدًا بَعْدَ واحدٍ، فذكَرَ مِنَ الموانِعِ: أنَّ قُلوبَهم في غَمرةٍ، وأنَّهم لم يَدَّبَّروا القولَ، وأنَّهم اقْتَدَوا بآبائِهم، وأنَّهم قالوا برسولِهم جِنَّةٌ، وذكَرَ مِنَ الأُمورِ الموجِبةِ لإيمانِهم: تَدبُّرَ القُرآنِ، وتَلقِّيَ نعمةِ اللهِ بالقَبولِ، ومعرفةَ حالِ الرَّسولِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكمالِ صدقِه وأمانتِه، وأنَّه لا يسألُهم عليه

أجْرًا، وإنَّما سعيُه لنفعِهم ومصلحتِهم، وأنَّ الَّذي يَدْعوهم إليه صِراطٌ مُستقيمٌ، سَهْلٌ على العامِلينَ لِاستقامَتِه، مُوصِلٌ إلى المقصودِ مِن قُربٍ، حَنيفيَّةٌ سَمْحةٌ؛ حَنيفيَّةٌ في التَّوحيدِ، سَمْحةٌ في العمَلِ، فدَعوتُك إيَّاهم إلى الصِّراطِ المستقيمِ مُوجِبٌ لمن يُريدُ الحقَّ أنْ يَتَّبِعَك؛ لأنَّه ممَّا تَشهَدُ العُقولُ والفِطَرُ بحُسْنِه، ومُوافقَتِه للمصالِحِ، فأين يَذْهَبون إنْ لم يُتابِعوك.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿75﴾

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) أي: ولو رَحِمْنا هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، ورفَعْنا ما أصابَهم مِن عذابِ الدُّنيا مِن قَحْطٍ وجَدْبٍ وفَقرٍ؛ لَتَمادَوْا واستَمرُّوا في كُفرِهم وضَلالِهم الَّذي تَجاوَزوا فيه الحَدَّ، وهم يَتردَّدونَ حيارى لا يُمَيِّزونَ الحقَّ مِنَ الباطِلِ. موسوعة التفسير

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ﴿76﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال ابن عاشور: أنَّها استِدلالٌ على مَضمونِ قولِه: وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [المؤمنون: 75]، بسابِقِ إصرارِ المشرِكينَ على الشِّركِ، والإعراضِ عن الالْتِجاءِ إلى اللهِ، وعدَمِ الاتِّعاظِ بأنَّ ما حَلَّ بهم مِن العذابِ هو جَزاءُ شِرْكِهم

(وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) أي: ولقدْ أصَبْناهم بعَذابِ الدُّنيا -كإصابتِهم بالجُوعِ وغَيرِه- فما خَضَعوا لربِّهم بالانقيادِ لأوامِرِه، واجتِنابِ نواهِيهِ، وما دَعَوْه بخُشوعٍ وتذَلُّلٍ وافتِقارٍ؛ لِيَرفَعَ عنهم البلاءَ الذي أصابَهم. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: اللهُ تعالى يَبْتلي عبْدَه؛ لِيَسمَعَ شَكواهُ وتَضرُّعَه ودُعاءَه، وقد ذَمَّ سُبحانَه مَن لم يَتضرَّعْ إليه ولم يَستكِنْ له وقْتَ البلاءِ، كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ، والعبْدُ أضعَفُ مِن أنْ يَتجلَّدَ على رَبِّه، والرَّبُّ تعالى لم يُرِدْ مِن عَبْدِه أنْ يَتجلَّدَ عليه، بلْ أراد منه أنْ يَستكينَ له ويَتضرَّعَ إليه، وهو تَعالى يَمُقْتُ مَن يَشْكوهُ إلى خلْقِه، ويُحِبُّ مَن يَشْكُو ما به إليه. وقيلَ لِبَعضِهم: كيف تَشْتَكي إليه ما ليس يَخْفَى عليه؟ فقال: رِبِّي يَرْضَى ذُلَّ العبْدِ إليه.

المؤمِنُ مَن يَستكينُ قَلْبُه لِرَبِّه، ويَخشَعُ له ويَتواضَعُ، ويُظهِرُ مَسْكنَتَه وفاقَتَه إليه في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ؛ أمَّا في حالةِ الرَّخاءِ: فإظهارُ الشُّكرِ، وأمَّا في حالِ الشِّدَّةِ: فإظهارُ الذُّلِّ والعُبوديَّةِ، والفاقةِ والحاجةِ إلى كشْفِ الضُّرِّ؛ قال تعالى: وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ؛ فذَمَّ مَن لا يَستكينُ لِرَبِّه عِندَ الشِّدَّةِ، وكان النَّبيُّ يَخرُجُ عندَ الاستِسقاءِ مُتواضِعًا مُتخشِّعًا مُتمسْكِنًا. الدرر السنية

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ [الأنعام: 42 - 44].

وقال سُبحانه: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [الأعراف: 94- 95].

﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿77﴾

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) أي: حتَّى إذا فتَحْنا عليهم عَذابًا شديدًا، إذا هم في ذلك العَذابِ الشَّديدِ نادِمونَ على ما صدَرَ منهم مِن كُفْرٍ وتَكذيبٍ بالحَقِّ، آيِسُونَ مِن حُصولِ الخَيرِ والفَرَجِ والنَّجاةِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (لكنْ وراءَهم العذابُ الذي لا يُرَدُّ، وهو قولُه: حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ؛ كالقتلِ يومَ بدرٍ وغيرِه، إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ آيسونَ مِن كلِّ خيرٍ، قد حضرهم الشرُّ وأسبابُه، فلْيَحْذَروا قبْلَ نزولِ عذابِ الله الشديدِ، الذي لا يُرَدُّ، بخلافِ مجرَّدِ العذابِ؛ فإنَّه ربَّما أقلع عنهم، كالعقوباتِ الدنيويَّةِ التي يؤدِّبُ الله بها عبادَه، قال تعالى فيها: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ.

إِنَّ المؤمِنَ العَاقِلَ الحَصِيفَ يَعلَمُ أَنَّهُ في ابتِلاءٍ مُستَمِرٍّ مَا بَقِيَت رُوحُهُ في جَسَدِهِ، وَأَنَّ عَلَيهِ لِرَبِّهِ في كُلِّ حَالٍ وَظَائِفَ وَحُقُوقًا لا بُدَّ مِن أَدَائِهَا، وَمِن ثَمَّ فَهُوَ لا يَنشَغِلُ بِنَعِيمِ الدُّنيَا وَعَافِيَتِهَا عَمَّا قَد يَحصُلُ لَهُ فِيهَا مِن مَصَائِبَ وَابتِلاءَاتٍ، وَلا تُلهِيهِ أَيَّامُ سُرُورِهَا عَمَّا قَد يكون في دُرُوبِهَا مِن حَوَادِثَ وَنَكَبَاتٍ، وَلا تُنسِيهِ سَعَةُ العَيشِ مَا قَد يَعقُبُهَا مِن ضِيقٍ أَو يُنَغِّصُهَا مِن مُشكِلاتٍ.

لَمَّا ظَهَرَتِ النُّذُرُ في الآوِنَةِ الأَخِيرَةِ؛ مُذَكِّرَةً لِلنَّاسِينَ مُنَبِّهَةً لِلغَافِلِينَ، وَعَلِمَ المُوَفَّقُونَ أَنَّ لِذُنُوبِهِم نَصِيبًا فِيمَا أَصَابَهُم وَحَلَّ بِهِم، وَصَارُوا عَلَى خَوفٍ مِمَّا قَدَّمُوا وَخَشيَةٍ مِمَّا بَينَ أَيدِيهِم، فَجَعَلَ بَعضُهُم يُذَكِّرُ بَعضًا بِوَاجِبِ التَّوبَةِ إِلى اللهِ وَلُزُومِ الرُّجُوعِ إِلى حِمَاهُ، وَنَادَوا بِضَرُورَةِ العَودَةِ إِلى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ وَالتَّمَسُّكِ بِالصِّرَاطِ المستَقِيمِ.. في هَذَا الوَقتِ الَّذِي لم يَبقَ فِيهِ مِن خِيَارٍ إِلاَّ التَّضَرُّعُ وَالاستِكَانَةُ، وَرَفعُ الأَكُفِّ بِالدُّعَاءِ وَاللَّهَجُ بِالاستِغفَارِ، يَخرُجُ مَن يَخرُجُ مُصِرًّا عَلَى رَبطِ النَّاسِ بِالأَسبَابِ المَادِيَّةِ البَحتَةِ، مُزَيِّنًا لهم أَوضَاعَهُم مُتَدِحًا أَحوَالَهُم، وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ أَن يُنسِيَهُم مَا ذُكِّرُوا بِهِ!! أَو كَأَنَّهُ يَرمِي إِلى أَن يُخَدِّرَهُم وَيَخدَعَهُم؛ لِيَتَمَادَوا في عِصيَانِهِم وَيَمضُوا في غَيِّهِم، وَيَنسَوا رَبَّهُم إِلى أَن يُأخُذَهُم بِشَدِيدِ بَطشِهِ أَخذَ عَزِيزٍ مُقتَدِرٍ!!

أَعلَمُ الخَلقِ بِرَبِّهِ، يَخَافُ العَذَابَ إِذَا رَأَى نُذُرَهُ، فَفِي الصَّحِيحَينِ عَن عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهَا- قَالَت: كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ خَيرَهَا وَخَيرَ مَا فِيهَا وَخَيرَ مَا أُرسِلَت بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرسِلَت بِهِ" وَإِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَونُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ وَأَقبَلَ وَأَدبَرَ، فَإِذَا مَطَرَت سُرِّيَ عَنهُ، فَعَرَفَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ فَسَأَلَتهُ فَقَالَ: " لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَومُ عَادٍ: (فَلَمَّا رَأَوهُ عَارِضًا مُستَقبِلَ أَودِيَتِهِم قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمطِرُنَا)". [الأحقاف:24]

الوَاجِبَ عَلَينا أَن نتهم أَنفُسَنا وَنخشى ذُنُوبنا، وَأَن نتوب ونستغفر ونقلع ونندم؛ فَإِنَّ التَّوبَةَ وَظِيفَةُ المؤمِنِ في كُلِّ وَقتٍ، وَقَد كَانَ نَبِيُّنَا -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كَثِيرَ الاستِغفَارِ عَلَى كُلِّ أَحوَالِهِ؛ قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: "وَاللهِ إِنِّي لأَستَغفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيهِ في اليَومِ أَكثَرَ مِن سَبعِينَ مَرَّةً" رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

فَلْنَعتَرِفْ بِذُنُوبِنَا وَلْنُقِرَّ بِعُيُوبِنَا، وَلْنَحذَرِ الإِصرَارَ عَلَى التَّقصِيرِ وَالتَّمَادِي في الغَيِّ وَالضَّلالِ، فَقَدَ قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-: "إِنَّ العَبدَ إِذَا اعتَرَفَ ثم تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيهِ" مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

ثُمَّ لْنَأمُرْ بِالمعرُوفِ وَلْنَنْهَ عَنِ المنكَرِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِن أَسبَابِ دَفعِ العَذَابِ وَرَفعِهِ، قَالَ - تَعَالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهلِكَ القُرَى بِظُلمٍ وَأَهلُهَا مُصلِحُونَ) [هود:117] وَقَالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا الظَّالِمَ فَلَم يَأخُذُوا عَلَى يَدَيهِ أَوشَكَ أَن يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنهُ".

إِنَّ عَيشَ المؤمِنِ وَيَدُهُ عَلَى قَلبِهِ خَوفًا مِن أَن تُصِيبَهُ مُصِيبَةٌ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِ وَمَعَاصِيهِ - خَيرٌ لَهُ مِن أَن يَسرَحَ في دُنيَاهُ وَيَمرَحَ، وَيَتَمَادَى في غَيِّهِ مُصِرًّا عَلَى ذُنُوبِهِ، غَافِلاً عَمَّا يَجرِي حَولَهُ؛ حَتى تَطرُقَهُ الحَوَادِثُ وَهُوَ نَائِمٌ.

في البُخَارِيِّ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قَالَ: "إِنَّ المؤمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَن يَقَعَ عَلَيهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا".

المسلِمُ المتَيَقِّظُ الضَّمِيرِ الحَيُّ القَلبِ، لا تَرَاهُ إِلاَّ دَائِمَ الخَوفِ وَالمرَاقَبَةِ، يَستَصغِرُ عَمَلَهُ الصَّالِحَ -وَإِن كَثُرَ-، وَيَخشَى مِن عَمَلِهِ السَّيِّئِ -وَإِن صَغُرَ- وَأَمَّا الفَاجِرُ المظلِمُ قَلبُهُ فَهُوَ قَلِيلُ المعرِفَةِ بِرَبِّهِ، فَلِذَلِكَ يَقِلُّ خَوفُهُ وَيَستَهِينُ بِالمعصِيَةِ.

قال-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مُحَذِّرًا مِن احتِقَارِ الذُّنُوبِ وَالاستِهَانَةِ بِالمعَاصِي: "إِيَّاكُم وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَومٍ نَزَلُوا بَطنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتى حَمَلُوا مَا أَنضَجُوا بِهِ خُبزَهُم، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتى يُؤخَذْ بها صَاحِبُهَا تُهلِكْهُ" رَوَاهُ أَحمَدُ وَغَيرُهُ وَصَحَّحَهُ الأَلبَانِيُّ.